# هيام

رواية

دعاء إبراهيم

# هيام

# إهداء ...

إلى روح المغفور له بإذن الله «عثمان ولد البتول»، كما نناجي لك الله وندعو لك بالمغفرة الواسعة.

## « استهلال »

كعادتي في منتصف الليل، ابتسم للسطور، أهدهد اليراع عساه يفرحني وينبض بقولي، أتوسم في أناملي الخير فتغدق، أحب سلاسة الحبر على ورقي، أفكر في ريشة أجدادي وفي البردي، المحبرة المعتقة برائحة المداد الموقر، وقطرات الحبر المتمردة تلوث الطاولة كأنها اختارت الموت على منشفتي، وكأن الموت حالة اختيارية، قدري أن أفقد بعض القطرات لتظل بعض الحروف مبهمة، تحمل أكثر من معنى؛ فتكثر الاحتمالات وتفقد الكلمات خصوصيتها.. كلمات لم تكتمل، قطرة أنقصت كلمة، وكلمة توهت معني، ومعنى يترجم حياة، وحياة أفسدها الدهر، والعطار يخيرنا ويحيرنا:

"هذه عشبة وهذه بخرة، اطحني هذه واحرقي أخري."

والأيام تهب وتطفئ نيران البخرة، فتتبخر عهود العطار، ويصح قول:

(لا يصلح العطار ما أفسده الدهر.)

ولا زلت أهدهد قلمي، أدوِّخ عقلي، وأطفئ قلبي؛ أما جفوني فلا تطبق بالمرة، فتصبح أحلامي على خير، أو على شر!.

المغزي أن ننتقل من توقيت لآخر، لتصبح أحلامي أعلامي، وأروح أهدهد ذاكرتي، أتذكر أشياء سقطت سهوًا، سقطت عفوًا، سقطت وهمًا، وماتت غرقًا، أنبش آلام ثقيلة، أفتح أوراق قديمة، أقرأ صفحات عظيمة، أحبو نحو تفاصيل مرة، وأحصحص نفسي، فتثقل خطواتي ويتسمر عقلي خلف الباب في ليل أجوف، ليل أعتم، ونجوم أقرب من تركيزي، وجواد يصهل، ما بال الخيل معي يسهر، وأزيز الأحداث يؤرقني، وألوان الطيف السبعة تهابك يا أسود، يا أيها الأكحل، ماذا تفعل يا ملك الألوان بهيبتك تكشف ما يلمع،

تتكشف بعض حقائقنا بتفاصيل لا تذكر، بفواريز الحجر الأزرق، ترعبنا إذا لونك ساد، تقتلنا إذا فجرك ضل، تأسرنا من أصغرنا لأشيخنا، فلماذا المستقبل أسود، ولماذا القلب يميل إلى الأعتم!.

لا زلت أهدهد قلمي / طفلي الأجمل، حبي وغدي، وآمل في سرد أجمل، وغد أجمل، عبارات أشمل، ولا زال الليل كطفل يحبو، ولا زال القلب بشيء ينبض، وبذور لن تنبت أبدًا، ترويها طبيعة قاسية أقسى من فقد لا يسكت، أقسى من جرح لا يضمد، أقسى من نار لا تبرد، أقسى من نفس لا تحمد، أقسى حتى من الأسود.

ولا زلت أهدهد قلبي.. أقصد قلمي، وأحمد الله على وجوده الأبدي.

**المؤلفة ،،**

**اقرأوها بسلام آمنين.**

## « تدوينة »

لم ألقي عصاي، ولم أبرء الأكمه ولا الأبرص، ولم ينشق لي القمر، ولم أكلم الطير، ولم أملك خزائن الأرض، ولم أشق الصخرة ناقة، ولم أدعهن ليأتين لي سعيًا؛ لكني أحمل قلبًا يصنع المعجزات.. قلبي هو معجزتي.

**هيام ،،**

## « مقدمة »

عندما شرعت في كتابة هذه الهيام، كنت في أمس الحاجة للكتابة والبكاء بصمت، كنت أعبر عن نفسي، عن أوهامي، عن أحلامي، وعن خيالات لازمتني سنوات، وصواعق أرعدتني وأرعبت أماني؛ فأخذت أخطها كلمات متقاطعة، مقاطع من لحظات حزينة، نزفت فيها أصدق ما يكون، نزفت عمري الذي تسرب بتفاصيلي على غفلة مني.

لا اعتقد أنَّها بالفعل رواية بقدر ما هي حكاية، رقعة كتابية جميلة ونقية، على الأقل بالنسبة لي لارتباطي بذكرياتها.

كل حرف من هيام مصدره كتلة من الحزن والألم، مزيج من

خواطري وأوهام صبية ضلت طريق الأمان، مزيج من دموع ومداد؛ لذلك ستجد أنها عبارة عن بضع أوراق تتوسطها وريقات قديمة تحمل ثقل السنين، وشخبطات على جدار قلبي، نسختها لكم، لأشارككم حياتي.. فلا تنسوني في صلاتكم.

هي رقع متناقضه لتباين الفترات الزمنية، لأني لم أكتبها حسب الترتيب الزمني، بل كنت أتخبط بين أولها وأخرها ثم أعود لقلبها وهكذا، أخط هذه التفاصيل بتاريخ اليوم وأنا بكامل قواي الشخصية.. شخصية فولاذية، شخصية أحبها الله؛ فشقت؛ فأدركت كنه الشقاء، وتبحرت في معارف الله وإرادته فصقلت بنار التجربة، فأصبحت من أقوى الشخصيات التي عرفها الحب وأتقاها، لكنها لا زالت تركوازية الملامح، مهذبة الدواخل، وقلب يحمد الله على تعلقه به.. لا أدري إن لم يكن إلهنا واحد عليم بذات الصدور كيف كان سيكون حالنا!.

**د/ يارا ،،**

# « هيام »

هيام.. هكذا سماها شقيق العمر، أعاد تسميتها دون كبش!

يسرا صلاح-الدين محمد، صبية في مقتبل العمر، كانت تعيش في مدن الأحلام، شيدت لنفسها مدينة فاضلة بها كل ما ينقصها من ماديات ومعنويات.

هيام.. قصيدة لم تكتمل، كانت حالمة حزينة، لعبت بها الدنيا حتى الموت، تناقلتها الأقدار من الأقصى إلى الأقصى، من الترف إلى الضنى، من الدلال إلى التجرد، ومن الطفولة إلى الهرم؛ فتبناها الخيال، وكثيرًا ما احتل تفكيرها قبل الأوان بأنه الفارس الذي سينقلها من الظلمات إلى النور، إلى البهجة والسرور، يكشف غمتها، ويؤنس وحدتها، كانت تتسائل:

"ترى من يكون وأين وكيف هو؟"

فتاتنا هادئة الطباع، أنيقة الدواخل، رومانسية إلى الحد البعيد، أحلامها وردية، تكتب الخواطر، تخيط الأماني لتزين بها أعيادها الخاصة، وتحب البحر. أحبها العديد من الشبان لكنه لم يكن ضمنهم، ولما وجدها، أعجبه تفردها.. ربما، بساطتها، سذاجتها، أحب هيامها وكلامها، ضحكتها الجذابة واهتماماتها الصغيرة، تيسيرها للأمور، حب الورود وسماع ترانيم الطيور، وتأملها في صفوف النمل الذي يخزن السكر في منظومة متناهية الدقه، علمها ألف باء الحب، أصبح الصديق، الأخ، الرفيق الدائم، المستمع النجيب، والمتبحر في عوالمها.

أحبت هيام تفاصيل حياة ثنائية لم تخطر لها على بال، فبدأ المشوار، وتوسمت فيه الخير، فتعلما لغة مشتركة رغم الاختلاف الواضح بين الحبيبين؛ فهي البساطة، وهو كل شيء.. هو ابن البلد المتمرس في الحياة، لكنه كان حين يقف عند بابها يخلع نعليه والصخب، ويترنم معها بألحان الست وعبدالحليم، ويسمعها وهي

تصف له بفرح جمال قوس قزح عقب الأمطار، وأنه هدية الله لمؤآنسة وحدة المستوحشين وهداية القلوب الضالة.

## « يارا »

اسمي يارا.. أو دكتورة يارا، تخصصت في علم النفس وعملت به وبرعت فيه بجدارة، أعتقد أني من أصغر اللاتي حصلن على درجة الدكتوراة في هذا المجال، أحب عملي جدًا، أعتقد أني قد خلقت لمجالى، اجتهدت في دراستي وتفوقت بفضل الدعم الأسري الكبير؛ ونجحت، لم ارتبط بأي قصة آتتني مهما كانت ظروفها، هذا مطلب أساسي للطبيب الناجح.

وفي أحد الأيام ...

## « بدء الجلسات »

جاءت إلى عيادتي صبية كأنها بلغت من العمر عتيًا، يمكن لأي أحد ملاحظة هيامها وقراءة التيه في ملامحها البسيطة الناعمة التي توحي بالدلال والكمال من أول نظرة، حسبتها من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في هذه الحياة الدنيا، استأذنتني بكل حياء، سلمت علي ونظرت إلى الكرسي، فاختصرت ترددها، خفضت الإضاءة، وأغلقت الأبواب.

قالت:

"هل لي؟"

تفضلتها بالجلوس، وعبرت لها عن إعجابي بذوقها في انتقاء العطر والملابس وتفاصيلها الأنيقه؛ فابتسمت وأماءت برأسها كأنها تخشى الكلام، تعارفنا:

"اسمي يسرا وقد كنت من قبل هيام!.. نعم، هكذا سماني ووصفني من أحببت"

قاطعتها:

"قهوة؟"

أعددت لها فنجان من النعناع كما طلبت، وبدأت في السرد.. والتبرير:

"لا أعتقد أني أميل للجنون، لكني أحتاج لعلاج جاد لأحافظ على ما تبقى من توازني ولكي لا أفقد المنطق.. قبل أي شيء أنا لا أريد أن يعلم أحد بزيارتي لكي وذلك لأنـ.."

قاطعتها:

"أعلم جيدًا نظرة الآخرين للمشاكل النفسية، الكل يرفض الواقع، لكن جميعنا بحاجة (للفضفضة)!.. بدايَّة عزيزتي يجب أن تفهمي جيدًا أن الطبيب النفسي لا يعني طبيب المجانين، أنا هنا لمساعدتك في إيجاد مفتاح حياتك، والبحث معك (لا البحث لك) عما ضاع منك أو ما تعتقدين أنه تاه في زحام الأيام للعبور بك لبر الأمان، لن نشق البحر، لكننا سنبني سفينتنا ونسئل الله أن يخرجنا من بطن الحوت، كل شخص لديه مكنونات لا يعلمها في نفسه تأثر عليه إما جزئيًا أو كليًا، أما الفطن هو الشخص الواعي مثلك والذي يختار أن يساعد نفسه، وصولك هنا عزيزتي دلالة على وعيك الكامل وانفتاحك نحو مستقبل ترينه رأي العين.. أعتقد أن ذلك نصف الحل، وأبشرك بمستقبل واضح ورصانة عقل أعانك الله بها على نفسك، فلتطمئني على نفسك، (وما هو على الغيب بضنين) صدق الحق."

رمقتني بعمق، وأمنت:

"صدق الحق. أتعرفين، عندي أصدقاء عديدين، لكني أؤمن بأن الأصدقاء يسمعون بقلوبهم وأنا بحاجه للسماع والفهم ولست بحاجة للتأثر والشفقه، بالإضافة لذلك فأنا متحفظة بعض الشيء وأحب الحفاظ على صورتي أمامهم، أرجو أن تساعديني على ذلك."

قلت بإشفاق:

"طبعًا حبيبتي."

"شكرًا دكتورة ☺"

"من الآن يمكنك مناداتي يارا ولا داعي للرسميات، وسأظل أسمعك بعقلي.. تفضلي كل آذان صاغية."

أخذت شهيقًا طويلًا، ثم قالت:

"أنا..."

انهمرت دموعها كالسيل، حرقة تفصلها عن الحياة، ألم حقيقي في دمها وكبرياء مكسور، أردت لو أتحسس خدودها، أجزم أن هذه الدموع دافئة أليمة، أعلم جيدًا! لكني عدت لطبيعتي لأخدمها كما وعدت، ناولتها كوب ماء وبعض المناشف الورقية.

"حياتي.. معقدة.. لا أعرف من أين أبدأ حكايتي، حكاية الألف ليلة هذه."

"ابدائي من حيث تريدين، هي لياليك، وأنا هنا لأداويك."

قلتها بشهيةٍ كبيرةٍ للخوض في تفاصيل حالتي الجديدة والمشوقة على ما يبدو.

"كل صباح تقريبًا كنت أذهب للبحر، كان بمثابة حبيبي الأول، كانت يصفق لي عندما أتعقل، ويداعبني عندما أبكي؛ فتختلط دموعي بماءه؛ فأضحك للطف الأحساس. وكانت تلكزني أمواجه عندما أشرد في اللا شيء لساعات، كانت الأمواج تصتدم بصخرتي الناعمة التي أخترتها بعد تردد.. تلك الصخرة شكلت لي

حماية من موجات الأسئلة اللا متناهية، عندما يعتصرني الضيق من التصريح كانت تصدها بقوة؛ فتنقلب الأمواج على أعقابها وتعود بنعومة لتعتذر بعطف يسع كل شئ، كنت أحسدها على تكاتفها ونشاطها المستمرين، وكثيرًا كنت أغني لها وأرمي لها بالأماني والأسرار؛ فتبتلعها، وتعدني بعدم الإفصاح. تطورت علاقتي بالبحر، أدمنت القراءة وتعلمت كيف أنتقي الكتب وأقرأ لكبار الأدباء وأهل العلم عامة، أصبحت أتجمل وأتعطر كل صباح، هاربةً لموعدي الغرامي! أحسست بملكيتي المطلقة للبحر، بنعومة رماله، أصدافه المتناثرة، لطافة نسماته، رائحة رذاذه، ذلك الخط الأفقي الذي يفصل البحر عن السماء، الطيور التي تتباهى بانعكاسها على صفحة الماء، هيبة الأمواج وخطر ابتلاعها لأي كان، ألوان الصخور، صفاء السماوات، ونقاء ذهني هناك. وحدتي فيه كانت تشعرني بالتميز، كنت أحس أني الأجمل والأنقي، لذا وقع البحر في غرامي وتحدى حزني، وأخذ بيدي، وبدأ يسمعني ويترجم لي الأحداث الغير مرئية لفتاة مثلي، ويقدم النصح في الأوقات

المناسبة، ويضحكني كلما حزنت، ويروِّيني كلما عطشت، ويبكيني ليزيل الأتربة داخلي، كانت فلسفته أن البكاء يجمل الحدقات ويعطيها ذلك البريق المميز وأنه يصفي النفس من الأحقاد ويهدئ سرائرنا، كان يهديني للبكاء كثيرًا ولا ينظر إلى وأنا أنشح لأني أكره البكاء علانية، بعدها كان يبدأ معي الأحاديث المتفرقة ويرسل أمواجه لتزيل بقايا دموعي! كان يستمع لقراءتي للأشعار والآيات والحِكم والمواعظ، لطالما أحببت أقوال الأئمة رضوان الله عليهم، وللحق فقد كنت أحمل همَّ رزقي كعادة البشر كنت أسئل الله كثيرًا أن يرزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، كنت أحب الرفاهية، وكنت أقص على نفسي الأمارة بالسوء الكثير من المواعظ والأقوال الفقهية والأدبية منها من قول الإمام علي.. عفوًا! استرسلت طويلًا، والقول ليس بالأهمية."

"لكني أهتم بالأستماع لكل تفاصيلك مهما كانت صغيرة بالنسبة لك"

فقالت:

"قال:

(عليك بتقوى الله إن كنت غافلًا

يأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري

فكيف تخاف الفقر والله رازقًا

فقد رزق الطير والحوت في البحر

من ظن أن الرزق يأتي بقوة

ما أكل العصفور من النسر

نزول عن الدنيا فإنك لا تدري

إذا جن ليل هل تعش إلى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة

وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر)"

ابتسمت لها وقلت:

"أكملي."

"في أحد العصاري، أثناء تجولى وسط الرمال الناعمة بينما

أغمس قدماي داخلها وألملم الأصداف الصغيرة، أحسست بعطر رجالى قوي يتبعني ويبطئ من قوة دفعي لجسدي؛ فتباطأت خطواتي بدلال! وأنا أرجو الله أن تكون معجزة البحر قد تحققت، تمنيت أن يستوقفني ويقول لي:

"ها أنا ذا!"

خجلت من نفسي، ولا زلت أتدلل، أقتربت الرائحة، وقفز قلبي، هب نسيم داعب رموش؛ ففرحت وتيقنت أنه العطر الذي أنتظر! حينها ألقى التحية؛ فخفت من فضح أمري.. غيرت ملامحي، هدَّئت نفسي، ومحوت ابتسامة قلبي، وألتفت إليه، ورددت التحية بكل احترام ولا مبالاه، يا إلهي إنه أجمل من عطره! فابتسمت ببلاهة وأدرت وجهي.

"هل أنت وحيدة؟"

لم أستطع الرد، كنت أود لو اختصرت الزمن والبرتوكولات وقلت له "أظنني لم أعد كذلك!"

"الأن؟ أقصد هنا على الشاطئ؟"

"نعم، أنا كذلك."

"لماذا أربكتك الكلمة؟"

"أي كلمة؟"

عادت ابتسامتي البلهاء تملأ وجهي، فغمس يديه في جيوبه وتابع المسير متيقنًا أني سأفسح له المجال ليأخذني في طريقه، وقد فعلت! ملأ رئتيه بالهواء، وأنا أيضا فعلت! رفع حاجبه الأجمل.. أقصد الأيمن، وأنا كذلك فعلت! وكأنما حمل ثقيل قد انزاح من كتفي في تلك اللحظات السرمدية، ماذا لوكنت أتخيل؟ أو أنه فيلم في سينما ثلاثية الأبعاد؟ نظرت إلى البحر وغمزت له "شكرًا".

اعترض تفكيري مواصلًا:

"أنا أيضًا أخاف الوحدة."

فاستطردت:

"لكني لم أقل أني أخافها!"

"لكن ملامحك قالتها، على العموم لا يوجد مخلوق لا يهاب الوحدة، فكل مخلوق يبحث عن شريكه، وأنا مخلوق! وأنت؟"

"نعم نعم بالطبع، وأنا أيضًا."

الآن تأكدت تمامًا من أنه قدري، كان رجلًا هادئًا وصحي المظهر، أظافره منمقه، قمحي مخملي البشرة، لبق وذكي ولماح، ملامحه شرقية، تنبأت أنه مثقف ومتدين، مد يده وابتسم وكأنه يحيي طفلة في العاشرة من عمرها.

"عادل"

"تشرفنا أستاذ عادل"

"أستاذ!"

ابتسمت من جديد تأكيدًا على أن الألقاب مهمة في هذه الفترة للحفاظ على الاحترام ولأني لم أعرفه بعد.. كأنما فطنت لعمر العلاقة وافترضت أن يكون سرمدي!

"أنا"

فقاطعني:

"أنت يسرا."

تقلصت العضلات المحيطة بعيناي وحركت شفتاي وأنفي يمينًا ويسارًا في حركة استفهامية!

"الشهرة متاعب!"

قلتها ولا أدري لماذا بين لحظة لا ضحى لها أصبحت خفيفة الظل!

"الحقيقة، لم ألتقي بك صدفة ولا أتيت مباغتًا للبحر ليقدمك على طبق من الفضة، أنت يا صغيرتي كنت مشروع تخرجي من الوحدة وقد قمت بدراستك جيدًا"

قاطعته بفزع:

"أنا؟!"

طأطأت رأسي بدهشة منتظرة رده، فلم يجب؛ وسأل:

"لما الحزن؟"

" أنا؟"

وكأنها الكلمة الوحيدة التي أعرفها.

"نعم، أنت"

"أاا.. لست كذلك!"

"ولما التردد؟"

"تردد؟ أنا! .. لا لا لست كذلك؟"

"لماذا الوحدة وأنت بهذه الملامح الجميلة؟"

"أنا؟"

ضحكَ، وقال:

"أتسألين عن جمالك أم عن الوحدة؟"

ضحكت لصفاء ضحكته وبياض أسنانه وبساطة ملامحه، وتبلدي أمامه، أكاد أقسم أني أعرفه منذ آلاف السنين وأجزم أنه أحكم وأجمل رجل في الكون.

"من أنت؟"

قلتها متفلسفةً.

"أنا؟"

كطفلين ضحكنا معًا.

"انظري لهذه اللوحة الربانية وجمال الألوان وتناسقها، سبحان الله"

قلت له:

"أحب السماء، لذا أعاني من آلام الرقبة"

قهقه ونظر إلى رقبتي، فخجلت ونظرت إلى الأفق.. وترددت في ذهني أغنية (ليلى مراد) "أنا قلبي دليلي قال لي هتحبي تيرا را را"

اعترض السيمفونية التي تُعزف داخل رأسي وسألني بعدما أحس بالذنب من نظرته المذئوبة لرقبتي:

"أتعرفين ما هي السماء؟"

ألم أكن أعرف من قبل أنه مثقف!.. ابتسمت وبدأ دوري في الإعجاز فامتطيت الثقة جوادًا:

"السماء هي كل ما علانا وأظلنا.. هي أيضًا خضم الفضاء بما فيه من الكواكب والأجرام، والصورة التي نراها في الليالي الصافية تلك القبة الزرقاء وما هي إلا نتيجة تلاقي ضوء الشمس والنجوم مع دقائق الغبار العالقه في الغلاف الجوي وجزيئات الهواء نفسه وتشتته بها، هذا فضلًا عن الظواهر الضوئية الخاصة التي تزين سمائنا الدنيا مثل الشفق والفجر والأضواء البروجية وأضواء الشمال أو الفجر القطبي كلها ظواهر متباينة ترجع إلى تفاعل الضوء مع غلاف الأرض الجوي ومجالها المغناطيسي."

"الأن فقط يا صغيرتي تأكدت مما يدور حولك."

"أنا! ماذا يدور حولي؟"

"تدور حولك الأجرام السماوية طبعًا"

ضحكنا، وأعتذرت له عن اسهابي وهذا البرنامج العلمي الذي لم يكن له داع.. ساد الصمت برهةً ملأ فيها عينية بملامحي، وأنا كمن يقف أمام معلمه! أنظر إلى الأرض وإلى الهواء وأزيح نظري عنه بكل الطرق، لم بخلصني من هذا التوتر إلا صوته يقول:

"فرصة سعيدة يسرا."

"أنا الأسعد."

"أتمني أن لا أكون قد ضايقتك بظهوري المفاجئ."

"لا أبدًا، لست مشغولة إلى هذه الدرجة لتضايقني."

نظر إلى بأبوة استغربتها جدًا وأحببتها جدًا، ثم مد يده مصافحًا؛ فصافحته.. ودعني بابتسامة غامضة اختصرت كلامًا كثيرًا، وكان علي أن أفهم ماذا تقول ابتسامته؛ لكني أحسست بأني لن ألقاه مرة أخري، لملمت خيالاتي، وتراجعت للوراء تدريجيًا،

وأنا ابتسم له ولقلبي، حمدت الله على جمال اللحظات ومنيت نفسي بأن لنا لقاء آخر مع الشخص المنتظر!.

"معذرة"

التفت له وأنا في كامل ألقي.

"نعم!"

"هل يمكن.. آآ أقصد إذا اتسع لك الوقت أن القاك غدًا في نفس المكان؟"

ابتسمت:

"إن شاء الله.. لكن أنا أيضًا أطلب منك تفسيرًا لما قلت."

"أنا؟"

ضحك بسخرية وثقة:

"أنا لم أقل بعد."

ابتسمت ملأ وجهي واحمرت وجنتاي، وهو يتمعن خجلي.

"أعلم أني غامض بعض الشيء، لكن أليس لنا لقاء آخر؟"

لم أعارضه أو أشدد بالسؤال، ولم أخشى من معلوماته عني أو من أين يعرفني، وأخذت ألوم نفسي على وحصة الفلك التي لم يكن لها أي داع، أوف ما هذا التسرع الذي أنا فيه! لماذا دائمًا أحب أن أبرهن على ثقافتي! كم أكرة تلك العادة في، لطالما دربت نفسي على قلة الكلام والعفوية لكن بلا فائدة، كم ألوم لمت نفسي لتسرعي بالحديث مع الغرباء، لا يمكننا أن نثق بالحديث مع الغرباء وتصديق القلب في كل شيء، خاصةً إذا كان قلب جديد كقلبي، كم أكره وأحب طبيعتي يا دكتورة!."

"كيف؟.. لم أفهم قصدك؟"

"دائما أتصرف بأنفعال إنساني بحت بلا تفكير في العواقب رغم رغبتي في عدم الإفصاح عن دواخلي لأني أعشق خصوصيتي!"

"أحيانًا يجب أن يشاركنا شخص ما في صنع الثقة في تجاربنا منذ بداياتها الأولي ليساعدنا على كبح أحاسيسنا إذا لزم الأمر"

"على العموم، كانت حيرتي في هذا اليوم كيف أستطيع أن أستحم دون ملامسة كفي الأيمن للماء والصابون، مع أن قلبي كان قد تعطر برائحته.. وسرعان ما أشرق الصبح، وها أنا أتجمل مع حرصي على عدم المبالغة، رغم رغبتي في الذهاب إلى صالون التجميل وارتداء أبهى ملابسي ...

ارتديت ملابس فضفاضة بسيطة ورفعت شعري إلى أعلى لتتدلي خصيلات ناعمة همجية على جيدي الطويل، وارتديت القلادة الفضية المشقوقة لنصفين كل نصف منهما يكمل الآخر بكلمة: (لا إله إلا الله .. محمد رسول الله)، وصندلي المريح، وعقلي الثمين وقلبي الرقيق كانا أهم ما يميز مظهري."

قاطعتها:

"عفوًا يسرا، أم أناديك هيام؟"

" أحب هيام!"

قالتها باستحياء، كان بمثابة إعلان بنشوة حضوره ما دامت سيرته حية.

"لكن كم كان عمرك آن ذاك؟"

"كنت في الثامنة عشر."

وأكملت:

"فكرت في أن أسأله عن قصته معي ومنذ متي وهو يراقبني وما هي أصل الحكاية، حضرت الكثير من الأسئلة، وكعادتي خرجت للبحر ولم يكن ما يلفت الانتباه لي غير مرحي الزائد الذي تعجب منه الجميع.

## « جلسة ثانية »

في الجلسة الثانية، قالت هيام:

"كان أبي رجل كبير في السن، يقضي معظم أوقاته إما في الجامع أو يقرأ القرأن الكريم أو يستمع لإذاعة بي بي سي أو مستلقيًا على كنبة الصالون ومسبحته في يده، كان هادئ الطباع جميل الخصال، لكن الزمن كان قد أكل منه وشرب، وكنت أنا في إجازتي الطويلة أنتظر نتائج الامتحانات وللالتحاق بكلية الآداب، مع أني كنت أعلم جيدًا أن نتائجي لن تؤهلني لذلك كنت أعاني في ذاك العام الدراسي ظروفًا قاسيةً وتدهورًا في صحة أبي لم يمكناني من الانجاز، كانت نظرتي بعيدة وهذا ما أرَّق ليلاتي، كنت دائمًا ألوم نفسي على وجوب قهر الظروف والاجتهاد في الدراسة مهما كانت

الظروف، كنت أرغب الشهادة الدراسة والوظيفة المرموقة ومن ثم أنشيء مؤسستي الخاصة، وقضاء معظم أوقاتي في العمل وأنجاز الكثير، كنت أريد وأحتاج إلى كسب المال الوفير، لم ولن أقبل بحياة عاديَّة كنت أرغب بحياة مترفة، لا أقصد أن أكون مبذرة لكني أحب توفير جميع احتياجاتي بأفضل مستوي، هذا ما كان يؤرقني لسنوات لذلك فقدت القدرة على التركيز وبالتالي على الإنجاز ...

ولما خرجت لملاقاة عادل! لا لملاقاة البحر كعادتي، تأكدت من أنه سيأتي، سألتقية قرب صخرتي ليشاركني أياها، لم أتوقع أن أسمح لأي كان بهذه السرعة أن يشاركني أشيائي الخاصة جدًا، لكنها سنحة الأيام، تتوقف كثيرًا وتتحرك سريعًا، لا ندري ماذا تخبئ، لم أذهب قبلة لتجهيز المكان والانتظار، كنت أريده أن ينتظرني كنت أريد أن أذهب وأجد من ينتظرني ويراقبني وأنا أخطو نحوه كأميرة حكاية، كنت أريد أن أجلس معه على صخرتي، انتظرت هذه اللحظة وتجهزت لها منذ وقت بعيد.. تأخرت قليلًا، وكان هو هناك يجلس على صخرتي، ينظر إلى بينما أتمهل في خطواتي والنسمات

تهنئني عليه والبحر ينظر إلى عيني ويطمئن على مظهري والرمال فُرشت تحت قدمي كبساط، كان عطري منتشرًا يملأ المكان، أول ما لمحت منه كان حذائه البني الأنيق تحديت نفسي أنه ماركة (كلاركس) وخمنت أن هذا البنطال (برادا) أما القميص الأبيض القطني أظن أنه (زارا ) أما العطر إن كان نفسه عطر الأمس فمؤكد أنه (جيفنشي) والساعة حتمًا (سواتش)، وصلت إليه بينما يبتسم لي، كعادتي في الأشهر الأخيرة أصبحت أستاء من أي نظرات مباشرة تصحبها ابتسامة؛ سلمت عليه مستائةً؛ فأعترضني:

"Hey! are you OK?"

قالها بلكنة أمريكية أعجبتني ☺

"I think so.."

رددت بنفس اللكنة التي أحب، ولمحت براند (كلاركس) على جذائه، ضحكت، فرمقني متجهمًا.

"هي المرة الأولى التي أشارك أحدهم هذا المكان."

قال:

"والمرة الأولي التي تواعدين فيها شاب."

"نعم! كيف عرفت؟ انتظر، تذكرت، منذ متي وأنت تراقبني وكيف عرفت عني كل هذه المعلومات؟"

"أحاول تذكر تعريفك للسماء والفلك الذي يدور!"

فضحكنا معًا.

"آسفة، فقد بالغت وقتها قليلًا."

"نعم أعلم، ردك كان نتاج لكثرة المطالعة والوحدة، أليس كذلك؟"

"هو كذلك، وحضرتك عراف ولَّا حِدق."

"مش بالظبط يعني."

ضحك ونزل من الصخرة، وطلب مني مرافقته في تمشية.

"أنا أيضًا أحب اللهجة المصرية."

"وتحبين البحر."

"هو المكان الذي ولدت فيه روحي."

"كما أحب فيكتور هوجو باريس وأطلق عليها تلك العبارة."

ردَّدتُ مقولة هوجو الخالدة:

"الرجل هو البحر.."

"والمرأة هي البحيرة."

أذهلني بدرايته عن المقولة ذاتها، فقلت:

"فالبحر تزينة اللآلئ.."

"والبحيرة تزينها مناظرها الشاعرية الجميلة.."

"الرجل نسر يطير في الجو ويحكم كل ما تحته.."

"أما المرأة فهي بلبل تغرد، وعندما تغرد تحكم القلوب.."

الرجل له مصباح.."

"هو الضمير.."

"والمرأة لها نجم.."

"هو الأمل.."

أخذ قلبي يخفق بتصاعد مخيف ولذيذ، وقلت:

"الرجل ملتصق بالأرض.."

فرد بتبسم، حب، شهوه، وشفاة تلمع:

"والمرأة دائمًا بالسماء."

صفقنا لبعضنا، وضحكنا على انسجامنا ومباراتنا الكلامية في مقولة هوجو، فاستطردت بإعجاب ودلال:

"أسبق وزرت باريس؟"

"نعم، زرتها وحفظت شوارعها وأحببتها، وكم تمنيت العيش فيها مع امرأة عربية أعشقها وآخذ بيديها لنتمشي في صيف باريس تحت الأضواء.. وأنت؟ ... يا أخت، هِاي، هل تسمعني؟! هههههه"

"آسفة، رحت مع خيالاتك الباريسية، أنا، لم أزرها ولكني أحبها وأقرأ عنها ولكتابها وشعراءها وأحتفظ بالكثير من الصور الباريسية وأحب الذوق الباريسي والعطور الباريسية وكل ما هو باريسي."

"ذكريني أن آخذك معي."

"هههههه اتفقنا، سأذكرك."

نظرت إليه طويلًا، بينما يناظر هو الأرض، تأملت ملامحه البسيطة والمرتبة التي لا توصف بالوسيمة جدًا، لكن الكاريزما التي يحملها في عينية تكمل الصورة، تقتل الأنثي داخلي وتحييها، سألته:

"أتحب الغموض؟"

"مممم..!"

هز رأسه نفيًا، لكني كنت أعلم أنه رجل غامض وهذا ما أذابني فيه، لم أكن أدري في ذلك الوقت أنها قاعدة حياتية، المرأة باختلاف عمرها تحب الرجل الكتوم.. بادر بالسؤال:

"حدثيني عنك."

خفت وترددت كعادتي، ماذا إن ذاع صيتي معه، وأنا لا أعرف حتى اسمه الكامل، فكيف لي أن اكشف له هويتي! انتبهت له بينما يرمقني بتلك النظرة الاستفهامية، فتلعثمت، ولكني استجمعت شجاعتي وقلت:

"أنا فتاة عادية.. لكني أشعر في داخلي أني لست كذلك! أقضي تسعين بالمائه من وقتي في التفكير والتأمل والقراءة واتخاذ القرارات الحاسمة وركنها لحين إشعار آخر، لا أدري لماذا لا أتمم نيتي في أي منها، أحب الهدوء، أرغب بالالتحاق بكلية الآداب، أحب اللغات لكنني لا أتقن غير الإنجليزية فقط!.. والعربية طبعًا."

ابتسمت وتمايلت كالأطفال وشبكت يداي خلف ظهري.

"كل شيء بالتدريج!"

"أعني أن حياتي ليست مميزة بالدرحة التي تجعل تذكر

تفاصيلها شيئًا مشوقًا، على كل حال أعتقد أنك تعرفني."

"نعم، أعرف أنك جميلة وبسيطة وأنيقه، كما أعرف أيضًا أنه من السهل التعلق بك."

تجمدت وضغطت على أسناني ثمَّ شيئًا آلمني.. لمحني بنظرة حنونة حوَت الكثير من الطيبة والنوايا الحسنة، لا أدري كيف خطر ببالي حسنها ما دام هو رجل وأنا امرأة، لكنها كانت أحن نظرة من غريب تلقيتها في حياتي.

"وأنت؟.. حدثني عنك."

"درست العلوم الإدارية، وأشغل وظيفة لائقة، أحب الناس وعادةً يحبونني، نشئت على حب الله والرسول."

قاطعته:

"أنا أيضًا."

كم فرحت لذلك ولصدق تنبؤاتي، لكن ماذا عن تنبؤي بالعطر والملابس؟

أكمل:

"لا أهتم بالأرقام أبدًا.."

لم أفهم ذلك، لكني لم أقاطعه مرة أخري.

"أحمل في عنقي مسئوليات ضخمة، أسرتي تعتمد علي بالكامل، ليس ماديًا، لكن من جميع النواحي الأخري، وأنا أحب ذلك وأتحمله بالكامل."

نظر إلى فوجدني أسمع له وأحدِّق فيه كالطالب النجيب، فابتسم وقال:

"أحب طفوليتك!"

رفعت له حاجباي استنكارًا غير جادي؛ فقلص عضلات جفنيه محاكيًا تعابيري الاستفهامية؛ فضحكت.. رأى صَدَفةً كبيرة وعند انحنائه لالتقاطها نظرت إلى ياقة القميص وإذا به (United color of benetton) فحاولت أن أقرأ علامة البنطال، فالتقت عيناه بي؛ فتحير في أمري؛ فأضطررت أن أبوح له بكل

شيء؛ فضحك وقال:

"أنا أيضًا أحب هذه اللعبة."

"إذًا هو (برادا) وعطرك (جيفنشي) صحيح؟"

ضحك وقال:

"عرافة أم حداقة؟!"

آه أيها الرجل لو تعلم كم انشرح لك قلبي، وكم أحب أن يتيسر بك أمري، لو تدري كم أنا سعيدة، لو تدري كم انتظرتك، نعم أنت بالتحديد.. كان يراقب شرودي فاستطرد:

"أعلم أنه وقت العودة، إلى الغد إذًا؟"

كم أكره غبائي، لماذا شردت عنه! كدت أقول له "انتظر، أنني لن أرجع الآن" لكني تصنعت الهدوء ومددت كفي مودعةً وكأني سألقاة بعد قرنٍ من الزمان، وبكل الحزن داخلي ابتسمت وأطرقت رأسي بتلقائية مرحه، فتمني لي ليلة هنيئة على أمل أن نتلاقي بعد يومين في نفس المكان.

مر اليومان ...

وأنا الآن في قمة السعادة والانتعاش والألق، تغيبت عن بحري على غير العادة، أشعر أني نضجت في هذه الثماني وأربعون ساعة.. تحدثنا عن الشعر والدين والتصوف، استغرب اهتماماتي التي تكبرني.

"كنت ابني نفسي على منهاج والدي وكأنما أحسست بدنو أجله، قرأت عن الصوفية وأحببتها، وكنت أذهب معه كثيرًا للسادة المتصوفين أهل العلم."

ابتسم بعمق وفرحة:

"لا تزالين صغيرة!"

"هذا ما لا يعجبني في أمتي، يقرنون التعلم والمعرفة وحتى التدين بالعمر والهوية، أتدري أن العديد من صديقاتي يستنكرن ملأ دفاتري بصيغ الصلاة على الرسول ويحسبنها يأس وبؤس!"

ضحك:

"هذه طبيعة المجتمع، فتاة مثلك عادة ما تتمحور اهتماماتها في فنون المكياج وقصات الشعر وهكذا."

رحنا نتلاقي هكذا باستمرار لا انتظام، لكننا كنا نسهر نتهاتف يوميًا.. إلى أن جاء اليوم المنتظر، اليوم الذي سألقاه قبل سفره في اليوم التالي؛ فتعطرت وتبرجت قليلًا ولبست أجمل ما عندي؛ وجائني هو بقميصه الأبيض الفضفاض؛ فتخيلته ملاكًا، ما أجمل القمصان البيضاء!. كان نظيفًا كعادته، منمقًا وعطره فواح، كان يحمل لي معه دمية رمادية ممتلئة وحنونة؛ أحببتها جدًا، وأخذت أداعبها وأحتضنها؛ ففاجئني بنزعها مني بعنف وألقاها خلفه في حنق؛ دهشت من فعلته!؛ فقال:

"تبًا للدمية، تحتضنينها بحب ودفء وأنا أنظر لكما وأموت غيظًا وشوقًا!"

واستطرد:

"آسف، لكني كنت أشتهي أن أكون مكان الدمية!"

وناولها لي شرط أن أبقيها بعيدة عني حتى يغادر، أحمرت وجنتاي من الخجل، وفرحت بشدة لأنها المرة الأولي التي أحس فيها بهذا الشعور المتبادل، كنت عادة أحس بالإعجاب من الكثيرين لكني لم أكن أعبأ لأي منهم، لكني اليوم في منتصف علاقه طردية يتساوي فيها الطرفين نظريًا، جلسنا القرفصاء وكنت أعبأ على ألا يتسخ قميصة! فتسامرنا بهدوء وأبدي إعجابه بي بوله، وقال أني أجمل بنات الكون، وأنه أسعد رجل على البسيطة، تسامرنا كثيرًا، قرأت له الكثير من الشعر، أبدى لي إعجابه بمجموعتي المميزة والتي أفضِّلها على أحداث حياتي:

"سأهديك بيتين من (الإمام علي) بما أنكِ من محبية."

"آتني ما عندك."

وتربعت وكلي آذان صاغية؛ تعجبت وانقبض قلبي حين قال:

"النفس تبكي على الدنيا وقد علمت

أن السعادة فيها ترك ما فيها

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها

إلا التي كان قبل الموت بانيها

فإن بناها بخير طاب مسكنه

وإن بناها بشر خاب بانيها."

تجهمت وسرت رعشة في أوصالي، وشطحت بخيالات عنيفة، فقاطع خيالاتي وقال:

"غدًا أسافر يا عمري، سأتركك في رعاية الله الذي لا تضيع عنده ودائع، احتفظي لي بنفسك ولا تسمحي لأي كان بالاقتراب من جنتي في غيابي؛ لا أعرف لماذا شعرت بالانقباض والخوف! ربما من الأبيات التي سردها! لكن أعجبني أنه فال أني جنته! أصبح هو مظلتي الواقية من الخلائق أجمعين، أعجبتني نبرة الامتلاك تلك وأعجبني أكثر أني عمره!.

"غدًا صباحًا؟"

"نعم يا عمري."

شبَّك أنامله ببطء وحذر في أناملي ليختبر إذا كنت سأقبل أم اعترض! لم أكن أنوي القبول، لكن أناملي تثاقلت وأرتمت في حضن نظيرتها وكأنها ليست يدي! تسمرت بعض الوقت من هول الشعور، والأبيات تدور في ذاكرتي، وهو يترقب نظراتي ليدي ويحتضنها بلطف وأبوة واشتهاء! وأنا أذرف الدموع لفراقه، ولرغبة باغتتني دون إرادةً مني، ربما لكبتي رغبات بحجم البحر، أصعب شيء في الدنيا هو كبح النفس! أهديته قلادتي، كنت لا أستغني عنها أبدًا:

"محفورًا عليها الشهادة لتحرسك لي."

ابتسم وأخذ القلادة مرددًا الشهادة وتمنى أن يحفظي الله، قال لي أحبك أكثر من ألف مرة وأنا كنت أجيب بالصمت والدموع، لم أكن أدري في هذا الحين كيف أنطق هذه الحروف مجتمعة مع

بعضها، ولم أتخيل نفسي وأنا اسحقها بشفاهي، كان يصطنع التكدر لعدم إعلاني لحبي له، لكن سرعان ما أشفق علي، أصبحت أعشق طريقته وهو يذوب حبًا بضحكاتي ويقبل أناملي كل على حدى، وأنا في حالة شلل كامل، أحسست بهبوط في الدورة الدموية، أحسست بصقيع كهربائي يسري في أوردتي، أحسست بالألوان تتطاير حولي، أحسست بثقل في أعضائي، وكنت أصارع خوفي من الله، وعمر من الخيال عشته في لحظات، كدت أن أغرز يدي في شعره، فقاتلت نفسي كي لا أفعل، وفضلت الصمت، والنظر لجفونه المطبقة في تلك اللحظات السرمدية وملامحه التي أصبحت أكثر رجولية وأكثر قوة، وأقرب للحزن أو لا أدري.. لا أدري.. لكننا لم نشأ الكلام بعدها، فذهبنا.

لم يغمض لي جفن ليلتها، وتحول لحافي إلى غيمة وسريري ارتقي عن الأرض، ورحت أعيد كل تفاصيل لقائاتنا بإستمرار لم ينقطع إلا للاستغفار!.

في صباح اليوم التالي أخذت هاتفي وخرجت إلى الحديقة واتصلت به، وإذا به بالفعل يستعد للرحيل قالها بحنين الأب:

"لا إله إلا الله.."

فأكملت بنبرة تبلغ الألف من عمرها ضعفًا:

"سيدنا محمد رسول الله."

وبفرح الحبيب ردد:

"أحبك من كل قلبي، ابقي لي وسأنتظر منك كلمة أحبك ولو بعد حين، أعتني لي بنفسك، سأحاول مهاتفتك كلما سنحت لي فرصة، لا أعلم كم من الوقت سأبقي، لكنك دائمًا داخلي وقلادتك ستحرسني وتسامرني كلما أفتقدت صورتك أيتها الجميلة."

لم أقوى على الاحتمال فأنفجرت بالبكاء بأعلى صوت:

"وأنا أحبك جدًا، لا تتركني، أنا بدونك وحيدة جدًا، سأنتظرك جدًا."

هتف بجنون:

"الله أكبر.. أخيرًا يا عمري؟ كنت أنتظرها منذ اليوم الأول للقائنا، كنت أنتظرها كل يوم، قوليها مرة أخري."

"أحبك."

قلتها وأنا أجهش ببكاء شديد؛ فهدئني كعادته بطريقته الفريدة.

أصبح يهاتفني كل يوم بعد صلاة المغرب مباشرة، هكذا حتى أنقضت المدة، كانا أطول وأجمل شهرين في حياتي حيث تعرفت عليه أكثر وأكثر، في إحدي الليالي الباردة ونحن على الهاتف كعادتنا والليل على ما نقول شهيد، أخذ شهيقًا طويلًا وقال:

"ما أجمل عطرك."

ضحكت باستخفاف:

"عطري! ومن أين لك به؟"

"قلادتك تحمل عطرك.. العطر أبلغ وسيلة لنقل الأحاسيس وتخيُّل وجودك، بالأمس تخيلت عنقك وبقيت أشم رائحة جيدك، تخيلتك معي في بيتنا الصغير، وتخيلت كيف ستعطرين حياتي، وكيف سأنام في حضنك، وكيف ستحتويني، كل يوم قبل أن أنام أتخيلك موجودة بجانبي.. الحب غذاء الروح وأنا أحبك".

"كنت دائمًا أبكي في صمتٍ، وكنت أحس بالإعياء لافتقاده يا يارا، وكنت دئمًا خائفة من عدم تحقق أمنياتي، واكتشفت أنه لولا بعض التفاصيل المتناهية الصغر لما اتضحت لنا بعض الحقائق المتناهية الكبر، وما أجملها تفاصيل مليئة بالجمال والبراءة والخبث والامتلاك!"

قاطعتها:

"عزيزتي هيام، هل يمكننا أن نكمل غدًا؟"

وافقت على مضض:

"لكني لا زلت أريد التحدث عنه؛ فأنا أشتاق إليه جدًا."

"أعلم أن بداخلك طاقة كبيرة للأكمال، فقط أريد أن اطمئنكي أن كل شيء سيكون بخير، أرجو منك عدم التفكير فيه لباقي اليوم، وسأكون غدًا في انتظارك."

ابتسمت لها بحنان وأمل؛ فودعتني ومضت.

اتجهت نحو ركن القهوة خاصتي وأعددت كوبي المفضل: Caramel latte وفكرت في هيام وتخيلت جمال الأحداث وفظاعة الفراق؛ وفكرت في أن أكتب رواية تضم تفاصيل من أحداث حياتي وحياة هيام، لما لا فلمثل هذا خلقت الروايات.

عدت إلى منزلي وشاهدت فيلم كوميديًا، ثمَّ أشعلت بخوري المفضل وألقيت بجسدي على أريكة الصالة، وتناولت قطعة من شيكولاتة الكراميل كمكافئة على يومي؛ لم تعمل الشيكولاته على بث الطاقة في جسدي بل رحت في نوم عميق.

## « جلسة تالية »

جاءت هيام في الرابعة عصرًا، حييتها ودار بيننا نقاشًا خفيفًا عن أشياء متفرقة، ثم طلبت منها أن تكمل حديث الجلسة السابقة.

قالت:

"في إحدى المكالمات كان يصف لي حياتنا وذلك القارب الخشبي الصغير الذي سيأخذني فيه عند زيارتنا لجزر الكاريبي، كنت أتخيل بدقة كل ما ينطق به لتتصور لي الأماكن رأي العين، فقفزت بسؤاله:

"لكني لا أجيد التجديف!"

"أعلم حبيبتي، أنا من سيتولي القيادة."

"ماذا؟"

"نعم أنا الرجل، أما أنت فليس عليك إلا الاستمتاع يا عمري وحين نتوقف في عرض البحر والمياه النقية تحتنا ووريقات الصنوبر تتساقط في غيرة منا ستهوين على زراعي كالفريسة السهلة وأنا والنسيم نداعب وجهك القمري يا قمر حياتي."

كنت ابتسم بلطف وكأنه أمامي الأن، هو يكمل حديثه بوصف تجريدي دقيق، وأنا أهيم مع مستقبلنا الذي لا أدري لماذا كنت أحسه لن يحدث! فقلت:

"ومتي سيحدث ذلك؟"

ضحك بدهاء رجل مشاكس.

"أتودين ذلك الأن؟"

"فهمتك أيها الماكر، أنا فقط أقول أن هذا الجمال يصعب على الواقع تصديقه، لا أحاول أن أكون مخيفة أو متشائمة، لكني أخاف التصديق والخسران من بعد."

"لا يا عمري، أؤكد لك أن ذلك سيحدث خلال بضع سنوات."

قفز سؤالي متلهفًا:

"بضع سنوات! سمها؟"

أحسست أني أضغط عليه ولكني وصلت لمرحلة المخاطرة بحياتي فليس لي إلا أن أتأكد، تجربتي مع الزمن والقدر عنيفة أصبحت أخاف من الدنيا، ولا أعتقدها ستلين لي بهذا الحد من الجمال، فتدارك حنقه وقال بنبرة مقنعة ومتفائلة كعادته:

"وما ذلك على الله بعسير."

صدقت قول الله ربي، واستفضت في شرحي لحبي وتعلقي به وكنت أبرر به حماقاتي وخوفي الدائم.

"لا أريد القارب، ولا السفر، ولا شهر عسل.. أريد فقط البقاء معك في هدوء وبساطة، أريد أن أطل على العالم من نافذتك أينما كانت وحيثما أطلت، لا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك."

"أملك؟ أنا!"

"نعم، أنت الرجل، سيد الحياة بالمفهوم الشرقي أنت المبدئ والمؤخر لها، أنت صاحب القرار."

وسرعان ما لجأ لخطته الشهيرة، وهي التعتيم على الأمور بذكر قدرة الله والفلسفات الدينية والروحانية التي أغرقني بها حد الشبع والاقتناع، قال لي:

"في سورة الروم قال الحق عز وجل (غلبت الروم، في أدني الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون)، صدق الحق، تفصيل الآيات الشريفة إشارة إلى حدثين أولهما قد وقع بالفعل، أما الثاني فلم يكن قد وقع بعد، وهو إخبار عن الغيب، وقد حدد لوقوعه بضع سنين فيما بين الثلاث والسبع، تفصيل الحدث الأول أن الفرس والبيزنطيين قد اشتبكوا في معركة في بلاد الشام على أيام خسرو الثاني عاهل الفرس المعروف عند العرب بكسري، وهيراكليوس

الصغير الأمبراطور الروماني المعروف عند العرب بهرقل، ففي عام ٦١٤ الميلادي استولي الفرس على أنطاكية أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للأمبراطورية الرومأنية ثم على دمشق وحاصروا مدينة بيت المقدس إلى أن سقطت في أيديهم وأحرقوها ونهبوا السكان وأخذوا يذبحونهم، وقد دمر الحريق كنيسة القيامة واستولي المغيرون على الصليب ونقلوة إلى عاصمتهم، وقد جزعت نفوس المسيحين لهذه الكارثة المروعة ولما كانت هذه الهزيمة مبعث سرور للمشركين من أهل مكة وسبب شماتتهم بالمسلمين لأن الروم أهل كتاب كأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والفرس ليسوا أصحاب كتاب كالمشركين أنزل الله جل جلاله على سيدنا محمد هذه الآيات البينات ليبشرهم بنصرة أهل الكتاب وفرحتهم وهزيمة المشركين وسوء عاقبتهم في فترة من الزمن حددها ببضع سنين.. وتفصيل الحدث الثاني أن هرقل قيصر الروم الذي منى جيشة بالهزيمة لم يفقد الأمل في النصر ولهذا أخذ يعد نفسه لمعركة تمحو عار هزيمته حتى إذا كان العام ٦٢٢ الميلادي، أي العام

الهجري الأول، أرغم الفرس على خوض معركة على أرض أرمينيا وكان النصر حليف الروم وهذا النصر فاتحة انتصارات الروم على الفرس، وهكذا انتصر أهل الكتاب على المشركين فتحققت بشري القرآن، لا تقلقي، ما هي إلا بضع سنين."

ابتسمت، وحمدت الله على هذه العقلية المكتَنزة، كم أحببت فلسفاته وثقافته الواسعة رغم صغر سنه ودعوت الله أن لا يحرمني منه.

"إذًا فسيطول انتظاري ما بين الثلاث والسبع سنين؟"

"هههههه لا، ليس كذلك يا حَرفية، أكاد أتنبئ بمستقبلك."

"حقاً؟"

"نعم."

"إذًا هات ما عندك!"

"أراكي امرأة تحب النكد!"

"ماذا؟ أنا نكدية؟"

"نعم، حبيبتي أنت كذلك، فبعد كل ما قلت لم تستنتجي إلا هذا!"

بعدها ضحكنا، وتسامرنا.

"أحبك يا سمراء."

قالها؛ فسكتُّ؛ فنكزني:

"هِاي، مالك؟ ألا تحبين سمارك!.. لماذا تفكرين كثيرًا! لماذا لا تستمتعين دائمًا بلحظاتك؟ ولماذا دائما تتشككين في الأشياء الجميلة؟"

"لا أعرف.. أعتقد أن التفكير التحليلي موجود في جيناتنا ولا دخل لنا في وجوده."

"لا، أبدًا بل نحن من نصنعه، نحن نغوص فيه، سأسألك سؤالًا، هل أنت جميلة؟"

"والله!"

"أجيبي سريعًا نعم أم لا؟"

"لا أعرف!"

"هذا ما قصدته، أنت لا تعرفين أبسط الأشياء عنك! أنت تتشككين حتى في صورتك التي ترينها كل يوم في المرآه، ما هو اتفاق العامة عليك، ماذا يقال لك ممن حولك، هل تسمعين بأذنيك أم بجزء خلفي في دماغك، ولماذا أصلًا تخافين من الأشياء القاطعة، لماذا لا تحسين نفسك، لماذا لا تثقين في نفسك؟"

"هل يمكن أن نؤجل هذا الحديث؟"

"فكري ببساطة، سيطري على صراعاتك الداخلية، حبيبتي أنا لا أوبخك ولا ألومك، أنا فقط أنبهك، وما زلت أحبك يا سمرائي يا عذرائي."

"ما ما ماذا! أنا؟"

"وهل في ذلك شك؟"

"في ماذا؟"

"أنك سمراء هههههه"

"تصبح على لخبطة هههههه"

ولأول مرة أرسل لي قبلة عبر الهاتف، أقسم بالله بأني أحسستها، وتوترت برهة لانفلات المسار، خفت وفرحت وتمنيت لو أنها بجانبي الآن.

أصبحنا على ذلك المنوال لسنتين أصبح هو كل عالمي، يومي وغدي حاضري ومستقبلي، صار أخي وصديقي وحبيبي، أسرني بمنتهي الدهاء والصبر، فأصبح مالكي الرسمي والآمر الناهي في حياتي! وأنا في منتهي السعادة بهذا الأسر! أخذ بن السابعة والعشرين يمهد الطريق أمامه لي فظهر في الوقت المناسب كحبيب بينما كنت أبحث عن الحب وأنتظره وسط الضيق.

توفي والدي بعد السنة الأولي لتعارفنا، فهزني فقدانه وتملكني اليأس، كنت لا زلت أحتاجه؛ فتبناني هو!.

وفي إحدى الأمسيات بينما أنا في طريقي لمنزل أختي لقضاء الليلة معها لتغيُّب زوجها ذاك اليوم، تعمدت الذهاب سيرًا، كنت أحتاج للمشي وحدي وإنهاك جسدي، أحس أن بذل الطاقة يدمر الحزن داخلي، فيتحول الغضب لقوة دفع ثنائي لأنهاك وقهر الحزن ليرتد إلي بصري بعدما أعمأني إبليس بفنونه، تحدث إلي بينما ألهث جراء الهرولة؛ فسألني عن السبب؛ من يومها وقد تبني يتمي وقد التزم بكل ما ينقصني من ماديات ومعنويات.. تحدثنا حتى وصلت إلى بيت أختي، ولم أنم ليلتها لاتصاله بي طول الليل، كنت أسعد مخلوقات الله بهذا الرجل الذي أصبح نبراس حياتي، ذلك الحنون السخي في كل ما يملك وما لا يملك، كان يرسل لي مجلاتي المفضلة التي لم أكن أستطيع توفير ثمنها، وداخل كل مجلة كنت أجد مقدارًا من المال يكفي سد جميع احتياجاتي! كنت دائمًا أرفض وكان يصر، كنت أخجل وكان بمرحه يهرب من الشكر، ومع الأيام أصبحت

ابنته على حد قوله ومعاملته، كان يحبني بطريقة شرقية أصيلة، وكنا نقضي ساعات الليل وأنا استمع له بينما يحدثني عن أمور الدين والدنيا، وكنت أجود بما نهلت من قراءتي المتنوعة، كان كثير الأسفار وحين ينتقل من بلد لبلد كنت لا أنام منتظرة وصول مقصده واتصاله بي، ثم أحمد الله على سلامته وأنام، كان مجرد الشعور بأنه خارج الحدود الجغرافية لنظري يصيبني بالوهن، وحين عودته يجدني قد فقدت الكثير من الوزن وتراخت عضلاتي من شدة اليتم بعدمه! لم أعي بخطورة ما أفعله بنفسي حينها، حتى حين تجرفه الغيرة من أتفه الأشياء وأبعد الأشخاص لي لم أكن أعترض، بل كنت أترجمها حسب هواي أنا المحبوبة التي لا يطيق أميرها فكرة لمس النسيم لها، أحببت ذلك واعتبرته حب متدفق وافتخرت به أمام قلبي، كان لين وحازم في الوقت نفسه، تحول حب امتلاكي عنده لموجات عنف ضارم في بعض الأحيان، وسرعان ما كان يبدل نبرته بأخرى شديدة اللهجة قوية المعني، كلمات لا تأبه بتبعياتها، كنت أبكي أحيانًا خوفًا من فكرة ضياعه مني، لم أكن أثق بأني

الشخص الذي لا يمكن تركه، فكنت أتنازل دائمًا وأحاول تهدئته في كل الأحوال وأمتص غضبه وحنقي في الوقت ذاته، كان الاحتياج لكل ما وهبتني إياه الدنيا يغلفني، لم أكن على استعداد للتخلي عنه ولا انتهاج أي منهاج لبلورة حياتي معه أو بدونه، ناهيك عن صغر السن والتجرد من التجارب وعدم الوعي، كنت أظنني أؤثر على نفسي لنفسي!.

في الحقيقه نسبة لصغر سني فإن والدتي كانت تخاف علي كثيرًا فتحرمني من أن أخوض التجارب ومن ممارسة الحياة ببعض التجرد، كان مفهومها للحب الشديد والحماية القصوي بالحزم الشديد الأمر والنهي والحرمان وتطويق الحركة، وأعتقد أني اكتسبت هذه الصفات في تعاملي مع ذاتي أيضًا، فكنت أفهم نفسي بعض الأشياء كي لا أتصارع مع واقعي الذي لن يتغير بأي حال، وحينما انتهج هو نفس المنهاج معي واصلت بترجمة تصرفاته تلك على أنها حب كبير ورعاية أبوية؛ لكنه كان يستصغرني بتلك الشخصية الهشة الضعيفة.

"يسرا!"

قاطعتها فتنهدت وكأنها تنتظر مني المبادره بإسكاتها ومنحها بعض الراحه، ناولتها كوب من عصير الليمون البارد، وطلبت منها المغادرة لنواصل في أي يوم آخر نتفق عليه لاحقًا، استودعتها الله، وجلست بعدها أراجع ما دونته عنها.. تحيزت لقصتها التي ستساعدني كثيرًا في بحوثي، فقررت استإذانها بأن تكون جالتها مادة لرواية.. لا أدري حتى الآن من ستكون بطلتها، أنا وما أتستر عليه، أم هي وما سأستره من ملامحها لأخلاقيات المهنة!.

## « جلسة هذيان »

اتصلت بي هيام في صباح اليوم التالي لتسألني مواصلة الحديث مساءًا، فوافقتها على الرحب والسعة وعرضت عليها ما قررته بالأمس فرحبت بالموضوع على أن أستر ملامحها تمامًا؛ فأكدت لها ذلك.

حضرت أنيقة، يتدلي عقد من الفضة والأحجار الكريمة من جيدها الذي ينبض جمالًا؛ فامتزج سحر الفضة مع عطرها الأخاذ وبريق الأحجار الكريمة، وترأست ابتسامتها الطبيعية جمالها الهادئ البسيط والمريح.. لطالما أحببت إطلالاتها، كم أجد نفسي تمتدحها كلما وقعت عيني على جزء من أشيائها المختارة بعناية شديدة.

اعترفت هيام بعض الاعترافات الرسمية في هذه الجلسة، قالت:

"أنا غبية، أو ربما.. لا زالت صبية، أو لأنه لم يكن لي غير العشق قضية إذ كنت قبلة نسيًا منسيًا، أنا فتاة بلا هوية، تملأني جراحًا سرمدية، أدخلتني دنيا مخملية، كان لي فيها أبًا وكنت أنا الضحية، أدمنت كلامه المطلي بالألوان الوردية، وما كان لي أن أكسب القضية.. كان واقعي لا يمت للواقع بصلة، كنت أغمس نفسي في الخيالات وأصدقها وأعيشها وأستبعد موته ويقهرني ذبولها، كنت أعشق دفء الأحاديث الحمراء، ولا أمل من الرومانسية الحمقاء.. في اعتقادي أن عظمة المعاني في اكتمالها والكمال في قوتها، قوة التماسك وقوة الالتصاق، فإما أن تتماسك ببعضها ويصعب تفريقها أو أن تكون قوة العوامل الخارجية هي الأقوي مما يؤدي لانفصال جزيئاتها فينتج عنها الضعف والوهن يا عزيزتي، وما أصعب الوهن إذا تملَّك!"

أدركتُ أن يسرا/ هيام تمر بحالة من الهذيان، وأني أيضًا كنت أهذي عندما فكرت في الكتابة عنها، لكني سأخط خواطري على أي حال، حسنًا فلتنطلق حروفي عني أولًا.. وها أنا أخلع معطفي وأرتدي أنوثتي وأجتر أحزاني كامرأة! امرأة طالما كانت ولا زالت معبئة بالأحاسيس والشوق، ولا أدري لماذا أغلقت على نفسي المصباح وأخذت دور الجني الذي يحقق آماني الغير ونسيت حياتي ووأدت أنثاي، لماذا لاأسدل شعري إلا عند النوم، لماذا لا تفارق النظارة عينيَّ، لماذا دائمًا أرتدي الفضفاض والأحذية المسطحة، لماذا لا أحرر نفسي أحرر الأنثي داخلي، لماذا لا أعشق من جديد!.. لا ليست خيانة لشخص لديه أربعة أطفال ويعيش في سعادة وتوافق مع زوجة أخرى، لماذا أصر على الإخلاص لذكري وقحة، لماذا لا أضع المساحيق وأتجمل، لا زلت صغيرة لأحب وأعشق وأهيم وأتزوج وأرقص وأفرح وأنتظر رجلًا يملأني حياة وأبناء.. ماذا فعل لي نجاحي في العمل الأن!.

بسم الله أبدأ من جديد.. كلماتي المفتعلة التي لا إحساس لها مع أنها تحوي الكثير، أو ربما هي ترجمة لحال لساني العاجز، بكيت لفقدان الكثير وإدراك القليل، كثير من الأصدقاء، قليل من الصادقين، عدم من المقربين، وإلى من نشكي؟ من سيسمع وكم سيعقل وهل سيصون؟ من يحمل معي ألمي ويسمع أنيني، سكت الكلام، وساد الصمت، ولا زال الألم مستمرًا.

أبحث عن الحرية.. الحرية تختلف من وضع لآخر، الكلمة صغيرة والمعنى كبير، الدنيا عريضة والعمر قصير، الآمال عظيمة والاحتمال ضئيل، وأنا أحاول الوصول لضالتي وتحديد أبعادي وتأطير شخصيتي.

أبحث عن المعنى، معني حياتي، أأنا حكيمة أم متهورة؟ مطواعة أم متمردة؟ جميلة أم متجملة؟ محبوبة بصدق أم متكلفه؟ فريدة أم متشابهة؟ وحيدة أم متوحدة؟

نبهتني هيام، فاستفقت من شرودي، ما الذي كتبته للتو؟ دعوتها للانتظار وراجعت خواطري المفاجئة، كيف لي أن أداوي آلام الأخرين بينما أنا تائهة ومعقدة! وبما أني قدرية وحسية فأظن أن الله قد دل هذه الفتاة علي لاستخلاص نفسي من خلالها، تعثرت بأحداثي، حتى وجدت نفسي، أخيرًا وجدها، واجهتها.

حقيقي أن وراء كل امرأة ناجحة حب فاشل، أنا كذلك لكني تمالكت نفسي بعنف، غمست نفسي وسط أوراقي، كان خطأ فادح أن أعوض فشلي العاطفي بنجاحي العملي، كان خطأ فادح أن أنجح في غمضة عين، لم أبكي ولم أجذع، لم أشكي ولم أضعف أمام الرجل الوحيد الذي أحببت، لم ألاحقه ولم اختلق الأعذار لأهاتفه وأسمع صوته، تبلدت أحاسيسي، قتلتها هو بوحشية توازي ألمي المتواري خلف المضي قدمًا.

الآن فقط ومن خلال حكاية أخرى تشبهني، فهمت كم ظلمت نفسي وصباي، نضجت بسرعة البرق! أتستر بسماع الأخبار والقهوة المرة، أتستر بالعقلانية المتناهية والتكبر على التشتت

الذهني، ولكننا نحتاج أحيانًا للضياع لبعض الوقت لنجد أنفسنا، لأننا إن لم نضيع فلن نعثر علينا!.. وجدتني في قصة بعثها لي الرب لتعيدني إلى سيرتي الأولى، أنثى ضعيفة تحتاج لرجل يظللني ويوبخني إذا تأخرت ليلًا ولم أرد على هاتفي لقلقه علي لأني امرأة وحيدة تقود في ساعة متأخرة من الليل!.. أخذت أرددها: لأني امرأة.. نعم امرأة تحتاجك لتظلمني وتنصفني لترشدني أحتاج رجلًا يكرهني ويحبني معًا، أحتاج أن أكشف عن ساقي لرجل واحد!.

عندما نبذني توأم روحي، عصفت بي رياح الظلم لجزيرة العزلة والكبرياء؛ فنبذت الأحاسيس والاشتهاء!.

كنت قد أحببته، أدمنته، حفظته وحفظني ثم خسرته، بحثت عن معنى الخسارة والقبح، حللت وتهت وبحثت عن مفردات جديدة في معاجم الخلق، استبعدت الرياء عن أمة محمد، بحثت في الأرحام، نبشت القبور، فتحت القرآن فوجدت أن كيدهن عظيم، فتجاهلت المعنى الأشمل وتمسكت بنصف اللحن لأبرئه وأعصمه وأخفف عن نفسي، تمسكت بالخيط خيط أعرج لا يمت للعنكبوت

بصلة! وأخيرًا أطلق خواطر، أطلق مشاعر، أنبش ذكرياتي وأحكها لينزف الجرح بدم فاسد، كان لابد لي أن أفقده منذ أعوام، فكتبت وبكيت وتألمت وارتحت، تحرك القلم والقلب، وإذا سمعت الأقاويل فأرميهم بحجارة من سجيل واجعلهم كعصف مأكول فهو لا يرضى بالظلم، اقترح عليك أن تقيس المسافة بيني وبينك، وبينك وبينهم، واقسمها على الزمن الذي سرقته من عمري وأضرب بالأقاويل عرض الحائط .. وهو المطلوب إثباته #

سيدلك الناتج أن مقدار الصدق لدي هو العامل المشترك الأكبر في العلاقة الطردية التي جمعت روحينا فاستعن بذرتين من الهيدروجين وواحدة الأكسجين لتغسل دواخلك التي أرهقها غبار السنين، والله خير الماكرين.

"دكتورة!"

لم أكن قد فرغت من نفسي حين أيقظت هيام سهوي، لكني قررت الانتباه لجمع أكبر كم من المعلومات، خصوصًا وأني الآن

أحتاجها ليس فقط كعمل لكن للتعرف على أوجاعي المنسية أيضًا، للحاق بقطار العمر الذي أيقظتني صافرته، استأذنتها في أن نأجل جلستنا ليوم آخر، حقيقة لم أكن أقوى على سماعها ولا تقمص دور الحكيمة؛ تقبلت بصدر رحب وغادرت.

## « هرج »

غلَّقتُ أبواب نفسي، وقلت لذاكرياتي هيت لكِ، وشردت لساعات استحضرت العديد من الأشياء الغير مهمة أبدًا، لكنني كنت بحاجة لهذا الشرود.

رجعت بتفكيري لهيام، لاحظت من تشبيهاتها الميل الصوفي والأدبي الذي طالما كان يستهويني ويأسرني، جمعت الصبية الصوفية والرومانسية تحت قلب وقالب واحد، لذلك يظهر لين شخصيتها وتأملاتها في دقائق الأمور وتحليلاتها المستمرة والمتمحورة حول الجوانب الإيجابية للسلبيات والضغوط واستشهادها بالآيات الكريمة والسنة النبوية الشريفة وما إلى ذلك من حكم تسبق سنها، وتهدئ بها روع نفسها، وكثيرًا ما كانت تأخذ مكاني وتفسر فيما

تسرد بعض النقاط الخفية، فلم أكن أحتاج للتوضيح أو التخفيف عنها أو ممارسة دور الحكيم الذي يتحدث دون مشاعر.

فلتعذر قدسية الحرمان الذي أيقظ داخلي روح الكتابة.. كم من كتاباتٍ أحرقتها لغيرتي من جمالها ولأنك ستقرأها، أو لخوفي من قوتها واتزانها، ولأني لم أكن أريد أن يقرأوك يا من كنت حبيبي.

الأن، وأنا وحيدة هذا الزمان جلست أناجي بعض أفكار وأحلام كانت تمر في أسراب أمام واقعي الحزين بعدمك، هل لي باستعارة بعضكم؟ حلم أو اثنين، أخلو بهم لأزيح ذاك الحزن عن كتفي.

لا زلت في بداية الطريق، وقد شددت رحال كلماتي وخواطر مرت على بالي وضعتها أمامي لصياغتها، فما استطعت، فكرت باللجوء إليه، إلى نزار.. شاعر المرأة والجمال، فها هي كلماتي: (الحب، العشق، الوحدة، الرهبة، الهروب، الخوف، النسيان، اللجوء، التمرد، الحزن، الحقد، الغفران، أنت، أنا، فرحتى،

اشتياقي، عمرنا، لهفتي، عالمي، ضعفي، قوتك، قدرتك، رجلي، قدري، موقفك، أملي، جرحي، الثقة) فهل من صياغة؟ آه نزار أغث مفرداتي من الضياع، تجلي يا معتصم اللغة العربية وأغث امرأة تناديك عبر الأثير لتنقذ ما يمكن إنقاذه من روح في أول العمر وبداية اليأس ومنتصف الوحدة ونهاية الأمل، سخر لي بعض السطور الجوهرية لتؤنس وحدتي وبعض قصائدك المتوحشة لتشفي بها غليل أيامي، وبعض خلاصات أتعلم منها وأسلك سبل الفلسفة لأتحايل على نفسي وأشده عقلي وأبهره بما تفعل يداي من منظومات وجواهر أدبية، لا رضى غرور قد اندثر، عندها سألملم أطرافي وأستعيذ من أضغاث أحلام لأعود لواقعي الذي لن يكون حزين وأستغل وقتي وأيامي القلائل وإن طالت، وبعد إدراكي يا نزار بانتقال روحك للروح القدس فليرحمك الرب الذي في السماء وليتقدس اسمك.

عادة ما كنت أجر الحزن جرًا لرغبتي في الكتابة؛ فأبى الحزن

أن يفارق عالمي وتمناني في صحوه ومنامه، فاعتدت أنا عليه وأصبحنا توأم لا نفترق، وها هو يجتز كلماتي من بين الكلمات، وأخذت أحيك المفردات وإن كانت ركيكة لكنها دسمة المغزي، لكن أحيانًا توترني عدم القدرة على الكتابة وفقدان الإلهام وهجران تعابيري وهيبة الإفصاح؛ فيفقد الحزن هويته ويصبح عبئًا زائدًا لا مفر منه.

لاحظت هرج مشاعري وكتابتي الخاصة، وملاحظاتي عن حالة هيام، اختلطت الأوراق والأحداث والمسميات، أنا أدون وهي تدون، أنا أبكي وهي تبكي، أنا فقدت شخصًا.. وهي أيضًا.

# « جلسة ألم »

حان موعد الجلسة، فتواريت خلف نظارتي، وأمسكت بقلمي وأعصابي، وانطلقت هي بالحكي.

"في مثل هذا اليوم منذ آلاف الساعات، وبعد أن ائتمنته على نفسي، واحتفظت عنده بكامل حقوق نشر مشاعري كيفما وحيثما شاء.. كان مسافرًا للعمل كعادته، كانت وظيفته ممتازة، وكان يثبت جدارته فيها بكل رجولته وطاقاته.. امتزجت داخلي الفرحة بالنضج والخوف والأمل والخصوصية، وتفاخرت أمام الجميع بنجاح حبيبي، كنت أنمق وضعه وأضخم مسؤولياته أمام نفسي أولًا صعودًا لآخر الدرج ...

وبدأ مشوار التوقعات، لم أكن أعرف أن هذا ما لا يحمد عقباه، فلم أكن في ذلك الحين قد بلغت السن القانونية للتجارب، كان قرار سفره مفاجئًا، فتعلقت نظراتنا دون الالتفات لمن حولنا، أحببت تلك اللحظة الخيالية، كان كالذي أضل نصفه:

"سأسافر غدًا!"

قالها بهدوء الموت؛ ففقدت القدرة على النطق، وجهلت التصرف وأنا أدرس ملامحه جيدًا خوفًا من نسيانها، وحتى تلك اللحظة لم أدرك معنى هذا الشعور، خفت من ذلك الشيء الجديد، خفت من إحساس النضج، خفت منه! خفت على قلبي، خفت من الحرام، أهداني بعض الأغنيات والنظرات الحزينة، فتقلص البراح داخلي! وضاقت الدنيا وكرهت الوقت الذي أصر على الإسراع في غفلة مني:

"أحبك جدًا، لن تأخذني منك الحياة، هذا وعد رجل نضج على حبك!"

قالها وابتسم وانطلق، فبدأ عقلي وقلبي موسم الهجرة ةالشوق إليه، وعدت وأنا أحمل إنسانًا كاملًا يحمل جيناته العاطفية، تكون في رحم قلبي، نسخة كاملة منه، إنسان قد بلغ داخلي من الكبر عتيًا.

أكملت وهي تجهش:

"دليني دكتورة يارا، إذا ما كنت مخطئة! هل أحبني أم كنت نكرة في حياة رجل لعوب؟ لماذا أعطاني كل هذا وأخذ مني كل شيء؟ لما تبني عمري إن لم يكن والده الحقيقي؟ لماذا اتهموني باليتم بعده؟ لماذا اتهموني بالادعاء؟ لماذا سمح بذلك؟"

بكت بصوت عال، وبكيت لبكائها، وبكيت لنفسي، كانت جلسة لا تنسى، كان كلانا يحتاج للصراخ، فتركت لها المجال لتغرق في دموعها، وأعطيت نفسي الإذن كي أنهار بالكامل.. ساد الصمت طويلًا؛ ثم رحلت.

## « فراق »

جلست وحيدة في عيادتي، أبكي وأجتر الذكرى ...

تذكرت يوم جائني مودعًا، كنت أبكي من هول فراقه، يا الله تلك عشرة كاملة، عشر سنوات من عمري! لم أكن أقوي على تحمله، وهو بكل الصدق والحب كان يحتضن يداي وهو يرتعش ويعدني بأنه لن يتركني وحدي مجددًا وأنه سيتصل بي كل يوم مرتين أو أكثر، وأنه سيشتاق إلى كثيرًا، وأني أغلي وأحلي ما يملك، كنت أقتسم معه الشهادة وحبالى الصوتية تذوب، إلى أن غادرني في أمان الله بعد أن استحلفني أن لا أبكي بعد مغادرته، لم أفي بوعدي وبكيت، فعاد إلي ونظر إلي نظرة حنون وطفولية، كانت تحوي الكثير من الرسائل ولا أدري لماذا وقتها أحسست أنها المرة الأخيرة

التي سأري فيها تلك الابتسامة! لكنه قلب العاشق، عادة ما يصيب في المآسي ويخطئ في الأفراح.

جلست أتذكر تفاصيل عطره، وأحتسي قهوتي المرة، وأخط خواطري.

## « خاطرة »

حدث أني احتويت قسوتك، وقبلت حبك، وتحديت عنادك، وكشفت لك سري، وفضحت لك أمري، وسترت بك عيبي، وفوضت لك أمري، وربطت قاربي بمرساتك.

حدث أن الصدق قد اغتيل وأصرع عن مقتل كل شيء وأجمل شيء وأصدق شيء.

من المؤكد أن أمورًا كثيرة قد حدثت كانكسار روح، وبوح سر، ومقتل حب، ودفن حبيب، وانهيار مبدأ، وتآكل عمر، وهجران جسد، وحصحصة حق.

كان يمكن أن لا أكون أنا الإناء المكسور الذي لا يمكن

إصلاحه، كان يمكن ألا تكون أنت سيد الموقف، كما كان من الممكن أن تلملم أشلائي وتعيد تركيبها بمعادلة كيميائية بسيطة التعقيد، بأن تضف القليل منك وتخض ذاكرتي بعض الشيء لتستخلصني وتلخصني وتخلصني.

# « جلسة علاج »

جائتني هيام مكسورة القلب، سلمت علي وكالعادة أغلقت الباب وخفضت الإضاءة، ونظرت صوب عينيها.

"دكتورة، كيف أكسب نفسي؟ حتى الآن لم أتعلم كيف أحب نفسي أقدرها وأعمل على إسعادها، لأن حياتي قد بدأت معه وبه؛ فلم أعرف كيف استمتع بدونه! وها هو قد ضاع مني وضعت من بعده، اسأليني الأن يا يارا ماذا أحب، أقصد الأن ما هو أكثر شيء يمكن أن يفرح؟ لا شيء! فقدت حاسة الاستمتاع بدونه! ربما لا أريد استعادته لكني حقًا أريد استرجاع نفسي، استرجاع الإحساس بالأشياء.. لم أجد حلًا فاتجهت للمأكولات الدسمة والنشوية والسكريات والتي عادة لا أطيقها، كنت فيما مضى استمتع

بالمشروبات بلا سكر وأحب الطعام الصحي؛ أنا الآن لا أشعر سوى بالألم والخيبة والندم، أفتح نافذتي كل يوم بانتظار معجزة الخلاص من الله! لكني أخجل من ربي دكتورة، أخجل لأني أهملت نفسي ولأني لم أعد ألجا إليه إلَّا لدعائه أن يعيده لي! إني أخاف الله وأحبه.

"كيف يا هيام؟ الحب حق مشروع!"

"لا أدري.. لا أدري!"

فهمت أنها تتستر على جزء مهم من قصتها لكني لن أسكب الملح على الجرح الآن.

"لكني أراك سعيدة طموحة وحياتك عامرة يا دكتورة، أراك تستمتعين بالقراءة، تقدرين عملك وتحبين الأسفار والأصدقاء وتقومين بمشاهدة الأفلام، كما أخبرتيني، عذرًا لقولي هذا لكني لا أري حولك رجل!"

"كان لي رجل، وكنت من أغبى، أقصد أسعد نساء الأرض،

وكأي حكاية حب عادية، حملتها الرياح لم أضج ولم أثور، بل واصلت حياتي، الحياة تحمل لنا الكثير ويجب أن نتجاوزه وأن ننظر لمشاكل الغير كعظة وحينما نظرت حولي وجدتني بكامل صحتى والحمد لله، فتعلمت الاستمتاع بالحياة ومواصلة الطريق وانتظار الآتي أيًا كان، وها أنا أمامك أحمد الله على لحظات عمري لأني لم أفقدها."

ابتسمت ورمقتني بإعجاب، كأنما تمنت لو تكون مثلي هأ، دوري العملي تطلب مني الكذب والتجمل.

"لكني يا يسرا لم أكن مثلك، أنتِ شجاعة واجهتي الألم وتحاولين الآن استعادة نفسك، أما أنا فقد هربت من نفسي، وتواريت خلف الكتب، وغطيت حزني وخفت ألا أقربه مرة أخري، جمدت إحساسي وخفت من النظر إلى نفسي وأنا أضيع، خفت من النظر لخيبتي، خفت من ملامحي المكسورة، كان حينها الحزن أكبر من أن أواجهه، وكانت أحاسيسي عظيمة، لذلك تفاديتها."

قلتها داخلي وأنا ألفظ أنفاسي بحرارة والصبية تظن أنها أسوأ مني حالًا:

"يسرا عزيزتي.. أقترح عليك أن تبدأين بتدوين كل هذا، اكتبي واقرأي ما كتبتيه عدة مرات، وفي كل جلسة سنقرأ ما كتبتيه معًا، أنت لست ضعيفة، أنت الأقوي بقوة قلبك وحبك، دوني عشقك وصدقك، نمقي كتاباتك وأنصتي لها جيدًا لعلكِ تعقلين!"

تعجبَت من الفكرة، وتحمست لها، وغادرت.

## « بدء التدوين »

داخلي ثورة، ضد كلماتي التي تأبي في هذه اللحظة الحرجة التشكل والانسجام مع السطور، ثورة ضد الأحزان المتداخلة وضد الوحدة، ثورة ضد الحقد والألم والضعف والمشاعر البغيضة التي يسببها القريب والبعيد. داخلي ثورات وثورات، ضيق وامتعاض، تناقضات، أسئلة بلا نهايات، وأجوبة بلا سؤالات، بدايات لا تنتهي ونهايات بلا بدايات، مبررات للا شيء، دنيا غريبة وعباد أغرب وإله واحد يري ويعلم، وملائكة تدون، يغفل اللاهون عن إدراك الحق، الحق الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء نحمدك يا رب على الوحدانية نحمدك على عبوديتنا لك نحمدك على يقظتنا القريبة والبعيدة نحمدك على نعمة الفناء نحمدك على

أبديتك نحمدك على نعمة البكاء والدعاء.

لا أدري ماذا أخط، لأن الكتابة إحساس وأنا أجهل إحساسي، أخشي إن كنت فقدته، وما يحدث لي هو نتاج تضارب أفكار لا أحاسيس، الإحساس يختلف باختلاف الموقف، والموقف إما سعيد أو حزين وفي كل الأحوال مفاجئ، ما يعني أن الإحساس شعور مفاجئ، وحياتي أصبحت مجردة من الأحاسيس والمشاعر، بسبب انتفاء عنصر المفاجأة والذهول، ترى ما سبب كل هذا؟ أم أنه مجرد شعور عابر وسيزول مع الوقت! وهل الوقت جدير بمعالجة مشاعرنا، وهل مشاعرنا تزبل وتموت؟ وهل تستطيع الأبجدية وصفها؟ هل المشاعر نعمة أم نقمة؟ وهل الحب شعور والعشق شعور متطور والكره شعور أقوى منهم؟.. في كل الأحوال فقد ماتت مشاعري وأحاسيسي ولن تخدع بعد اليوم.

عندما أحببتك كنت دائمًا فرسي الرابح، تشكل إحساسي تجاهك في هيئة اعتقاد، العقيدة هي الاقتناع وتصديق الشيء، العقيدة هي الحب والإخلاص بالمعتقد، سواءً كان شخص أو

مذهب أو أيًا كان، كنت ولا زلت أتلوك بخشوع في كل ليلة وأطمئن عقلي ببقائك، كإنسان مستقر، أعرف أن الأحاسيس لا تدرس ولا تدرَّس ولا تراقب ولا يجدي اجتهاد مع إحساس، أما تلك الخيالات المستفزة التي خدعت طهر دواخلي واخترقت شفافية تفكيري فسأنتقم لنفسي منها بالرجوع للواقع، لا تستاء أيها السطر المستقيم لن أفسد صراطك المستقيم لأن الاستقامة أصبحت من المعدومات في هذه الأيام.

الآن بفضلك يا سطوري أستعيد روحي وابتسامتي، لأني بدأت باستعادة بعض الأمل الذي اقتبسته من جوامع الكلم: (لا تقنطوا من رحمة الله).

الآن.. أنا يسرا.

## « من مذكراتي »

أذابت قدرتها على التحمل تلك الموسيقى المريحة إلى حد، وفقدت هيام القدرة على الاستتار بعقلها.

وانهرت أنا عبر كلمات نزفتُها في عجالة أودت بتسلسل الحروف إلى الهاوية، وهجمت عليَّ الأسئلة:

"هل تحبها كما أحببتني؟ هل تحب لهجتها كما أحببت لهجتي؟ هل تحب مفاجآتها كما اعتدت مني؟ هل تحب حكاياتها كما أحببت حكاياتي التي لا تنتهي؟ هل أنت صادق معها كما تعودت الصدق معي؟ هل كنت صادق معي؟ هل أنت صادق مع نفسك؟ هل تمنيتها كما تمنيتني؟ هل اشتقت لي وأنت معها؟ هل أحسست

بالكمال معها؟ هل لديكم أغنية مفضلة وفيلم مفضل وأكلة مفضلة؟ وهل لديكم أصدقاء مشتركين ودعاء مشترك وأفكار مشتركة وآلام مشتركة؟ هل ملأت بيتك بالورود وقلبك بالحب وعقلك بالهدوء ودفاترك بأجمل الكلام وعالمك بأجمل إنسان؟ هل أحببت عاداتها وعطرها وعقد تدلي من عنقها؟ هل ضحكت عليها ومعها ومنها؟ هل حلمت بها في يقظتك ومنامك؟

صف لنفسك جمالها، وصف لنفسك جمالي ومرحي وحياتي وكلامي وصوتي وحبي لك وأنت داخلي وأنا داخلك، وسنيني معك وحياتك معي وأحلامنا معًا وانتظاري لك ورحيلك عني وثوراتي لك وهذياني عندك وآمالك معي وطفولتي أمامك، وشموخك أمامي واحترامي لك وهفواتك معي واحتمالي لك وحفاظي عليك وأمومتي لك وأبوتك لي وطفلنا معًا وحبنا له وعهدنا وتفهمي لك وفهمي لك وراحتك عندي وامتلائي بك وازدرائي بك وفرحتي بوجودك وعدمي بعدك وغناي بك وفقري بعدمك وحبك لي وهيامي بك وقلبك الذي يفتقدني الأن وعقلك

الذي اعتاد علي وصياغتي لمفرداتك وتلخيصي لأفكارك وخوفي عليك وخوفي منك وخوفي بعدك وحياتي قبلك وحياتك قبلي وحيازتك لي وتملكك لشخصي وزهوك أمامهم بي وعيوني التي تخاطبك سرًا وعلانية ودموعي لك دموعي من أجلك ودموعي من بعدك .. حاول أن تقارن إن استطعت المقارنة!.

تناولت فنجان القهوة وأنا أفكر فينا، أنا وهيام، تنبئت أننا نتماثل حتى في صياغاتنا ليس لتشابه أحداثنا فحسب ولكن لتشابه أرواحنا.

## « تدوينة »

أحلامي الأعزاء ... أرجو منكم عدم الهدوء، ومواجهة الخوف، كما أتمنى من سيادتكم التفاعل مع بعضكم البعض لتحريك طاقاتي المكبوتة، وأنوه لسيادتكم بأن هناك العديد من المقاطع الغير مكتملة ولكني بصدد إكمالها والوصول بها إلى بر الأمان فلا داعي للقلق وهجرأني.

أحلامي الأعزاء، ما نمر به الآن من تأرجح في التفكير ما هو إلا نتاج لصراعات خارجية تؤثر على دورة عقلي الغير مكتمل بعد، وذلك نسبة لممارستي الحياة في وقت متأخر من مسيرتي الواقعية، وذلك بالطبع لعدة عوامل منها التردد والتردد والتردد والوحدة والخوف والطفولية، وهذا إعلان رسمي بالنضج الفكري.

## « من مذكراتي »

عن هيام (رضي الله عنها) نعم، رضي عنها لأنه أبعدها عمن تحب وترضى لنفسها ما لم يرضاه الله لها.

قالت أنه أقنعها برحيلة ليجس نبضها فحمل أوراقه وتعمد المرور بها، على حد قولها، فقفز قلبها وهزت رأسها بهدوء استنكاري، فأجاب:

"نعم، سأغادر البلاد لبضع سنين فهناك وظيفة لائقة بانتظاري، الفرصة التي حلمنا، أقصد حلمت بها من سنين."

تعمد التلعثم ليوقد أحاسيس أعتقد أنها تبلدت، فابتسمت بلطف مخنوق وغباء برئ، وحمل أوراقه المزيفة، فنزلت السكينة على

قلبه ومضي بيقين أنها لا زالت خاتم في أصبعه، فأصبحت تقلب كفيها على ما أنفقت من عمر أصبح خاويًا على عروشه بعدمه، فتخبطت أصابعها وهي تهاتف كل من يمكن أن تحصل منه على معلومة بشكل غير مباشر، فسئلت إحدي صديقاتها المقربات فنفت الخبر بثقة.

"هذا الرجل يلعب بأعصابك."

لكنها لا تري ولا تسمع ولا تتكلم في هذه الحالات بل تنزف ذكريات ورعب من القادم، وكتبت له:

"لماذا أعلنت الرحيل صوتًا وصورةً؟ وجودك هناك يكفيني، ابقي هناك، وداعًا."

سأحتفل بذكري ذكرياتنا معًا، سيبقي كل شيء كما كان حتى إشعار آخر، مؤجل، مقيد بالشرائط الحمراء، حمراء كلياليا المفترضة يا من كنت شهريار أحلامي، يا من كنت وحدك أنيس أيامي ورفيق متاهاتي، تعلقت بتفاصيلك الجميلة القبيحة المهينة، كنت

أنتهل منك الرحيق والعلقم، كانت أيامنا وحدنا وكنت أنت حبيبي بلا منازع شريكي بلا اعتراض كنت كل أهدافي، كنت أفضل استراق لمحة كل حين، كان إحساس وجودك يملأني ويهدأ تناقضاتي، لا تتركني أرجوك، أحتاجك.

بعدما أدركت أن شهريارها يود فقط أن يطيل أحاسيسها لألف ليلة وليلة، أحست بالإهانة.

كانت تندم وتقرر وتثور وتنوي الانتقام، ولم أكن أعارضها في أحاسيسها وقراراتها المتهيجة التي سرعان ما تمتزج بضعف السنين التي سرقت منها على غفلة من عمرها، وتعود صبية لا تملك شيئًا!.

قرأت كلماتها وتعمدت التركيز على حسن الصيغة وقوة إحساس السطور لا محتواها، وتابعنا حديثنا عن الهوايات وتنميتها وعن حيوات عراض تضج بالعمار إن أردنا، لم أمل من تكرار كلامي معها ولم أسأم من تمتماتها الواهنة اللحظية.

## « من مذكراتي »

أنتم يا ساكني قلوبنا وعقولنا، لا مفر لنا منكم إلا إليكم، ماذا إن كنت أتجاهل أحاسيسي لخوفي من فقدانك، وخشيتي من المواجهات، سؤالي هو: لماذا الندم؟ لماذا رجعت لذاكرتي؟ ما هي إلا حالة أعالجها؟ لماذا أعادتك لي في طياتها؟ وأين هيبة الأنا والشعارات؟ هل عادت لي عاداتي الطفولية البريئة؟ أحببتك بالأمس وأنا في ربيع العمر وسأظل أفعل حتى أرذله.

## « من مذكراتي »

آتاها مبتسم ببرائة الذئب، اجتاحها بقوة العشق، حملها على كفوف الدلال:

"أنت مليكتي طوعًا وكرهًا!"

"هل سنبدأ من جديد، وننهض من سبات أهل الكهف! ويعشق حبري السطو، ويبدأ الجنون، وأعود أنا المدللة الأميرة الجميلة، وستركض خلفي حاملًا حذائي الزجاجي، وستهديني القصائد، ألا ترى أني أحبك الآن أكثر من سابقًا؟"

"نعم سيدتي، أنت تحبيني الأن أكثر، أنت تريديني الأن أكثر، أنت جنوني ونجاحي، أنت رجولتي وقدرتي على الإقناع، أنت

حياتي إذا ما استطعت إليك سبيلًا."

"وإن لم تستطع؟"

"وإن سُدت السبل وتراكمت العوائق، لن تضلي طريقي."

لكنه أضل الطريق ولم يستطع إليَّ السبيل، وقد فارق قدري فالتهم الحزن قلبي، ولا زال الحزن طفلًا يحبو، والخوف في ريعانه، والموت في ذروته، والأمل في لحده، والحلم يغط في سبات عميق.

## « تدوينة »

قلبي العزيز ...

كم تشفق عليك كتاباتي وها هي تحاول ملأ القليل من فراغاتك المميتة بعدمه، عزيزي، تخلى عنا حبيبنا ونحن في أمَس الحاجة لبقايانا داخله، انتسب لعالمها وتجنس به، فقد هويته بنا وهو الأحب لنا، وأنت وأنا نهواه حد الموت ونحبه حد العذاب، وما لصبانا عهد بالعذاب، هجر الصبا الذي أوهمنا بتبنيه، هنيئًا لها بقلبه الكبير وحبه العظيم، لماذا لا أنساه! ولماذا نسيني! قلبي المتقلب لماذا عليه لا تنقلب!.

## « جلسة »

جاءتني يسرا، وقرأت تدويناتها، وشجعتها ومدحت قلمها، وبعثت فيها روح الفرح:

"تابعي عزيزتي، حركي طاقاتك لتخدمي نفسك، أنت الأن أجمل، وأنا دائمًا بانتظار كتاباتك لا أحزانك."

## « تدوينة »

(وإذا خان قُتل.)

عبارة تفوه بها عقلي ذات امتعاض. تهت في ملكوته وتكلم لسان حالي معه، وبقدر ما حاولت إخراج نفسي من دائرته بقدر ما فشلت وكنت في أمان معه، برغم معاناتي من بقائه داخلي لكني حقًا لم أكن أرغب في إخراجه مني، لهذا أعتقد أني لا زلت أحب كوني هيام! لماذا أظلم نفسي معه إلى هذا الحد!.

## « تدوينة »

لا أجد ما أخطه اليوم لكني أشعر بالانتماء للتدوين، أريد قضاء بعض الأوقات الخاصة معك أيها الوحي، عساك تلهمني في منتصف التوهان إلى كلمة أو اثنين ألقي بهم إلى التهلكة، والهلاك هنا من الاستهلاك والقراءة والتمحيص كل بفهمه الخاص، هناك من يعزز كلماتي وهناك من يهينها، وفي الحقيقة كتاباتي عزيزة لا تهان، من يلقي بالأدبيات خلفه فقد أهأن نفسه، ماذا أكتب الآن أهو ضرب من الجنون أم هي المكابرة على الكتابة.

## « تدوينة »

كتبت أحلام مستغانمي عن الحب قائلة:

"لكي تشفى من حالة عشقية عليك بالتحلي ببعض الشجاعة ودفن الحبيب والبحث عن حب آخر، لا تلمع قبر حبيب تهافتت عليه الديدان."

اليوم رفعت راية استقلالنا، أنا: (قلبي + عقلي)، اجتمعنا معًا مرة أخرى، وأدركت نهاية الحكاية، أعلنت موت البطل (لمثل هذا خلقت الحكايات) ...

هيام أيتها الصبية المتعبة، أستودعك الله وأتركك في أمانه، وأعود إلى نفسي يسرا القوية المحبة للحياة.

(فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا.)

## « تدوينة »

بعد إحالتي للصالح العام وقد هربت قبل تنفيذ حكم الإعدام على ما تبقى مني، وهتفت بأعلى صوت تبقي بين حبالي الصوتية لتحفيز بعضي المتوفى:

(عاش قلبي حرًا مستقلًا، عاش حبك في فلبي ومات فيه.)

ولله العمر من قبل ومن بعد.

اليوم فقط تيقنت أن كل من يعلق سعادته بغير الله مخطئ، وقد قررت أن أمضي بحياتي وأعفو عمن ظلمني لأني أدركت أن طاقة العفو تستطيع أن تفتح المجال أمام تحقيق أحلامي ونوايايا؛ فغُسلت دواخلي وشعرت بالسعادة والراحة النفسية، واكتشفت أني

كنت أستقي العلم ولا أنفع به نفسي.

رجعت إلى حياتي الأولي، وحبيبي الأول: (البحر)، أصبحت أهتم بنفسي لنفسي، رجعت إلى حياتي وهواياتي، بدأت أرسم وأمزج الألون وأنثر الفرح، وبين كل لوحة وأخرى كانت تهدأ نفسي.

## « تدوينة »

اليوم ...

لا أكاد أصدق أني نفس هذه الثلاثينية المحشوة بالمآسي؛ فها قد أسدلت جدائلي وتراني أخطو نحو حب جديد، آتأني بطريقة نمطية بحته، بشكل هادئ، واثق، طويل، عريض، وابن بلد. ولا زلت أخطو ...

ولكِ العتبى يا هيام.

**يسرا.**